ضرورة الإفصاح عن الرغائب

للأســـتاذ حسين الظريفي

كان مما تناولناه فى مقال لنا سابق عن الرغائب ، تلك القوة الديناميكية التى تتمتّع بها الرّغبة ، وتندفع إلى الظهور ؛ وما تلك القوة إلا وليدة ذلك الرباط الذى ترتبط به بالغريزة . والغريزة لا ريب تراث ذلك المـاضى الطويل الذى يظل يتقهقر ويتقهقر حتى يتصل بأول الخليقة ؛ فليس مما يقع فى الإمكان أو يتصور فى الأذهان ، أن تبطل هذه الغرائز ، أو ينعدم ما تتمخض عنه من الرغائب ، ونحن لم نزل فى ظروف وبين وقائع إن لم تـكن مثل تلك التى احتضنت الإنسان الأول فإنها لها مقاربة . وما كان لبشر أن يحيا مجرداً عن الرغائب ، وهى التى تشعره بوجوده وتدفع به فى طريق الأمل والعمل

والحقيقة التى يدور عليها مركز ثقل الموضوع فى هذا المقال ، هى أن الرغبة لا تخلو إما أن تـكون تطوراً لغريزة ، أو عوضاً عنها . فنحن كنا نعيش بالغريزة العمياء ، حتى إذا أبعدت الحياة فى مراحل التقدم ، أخذت بعض الغرائز تستحيل إلى رغائب بحيث لا يبقى لها من أثر فيما استحالت إليه ، إلا ذلك المعنى الذى يدفع أو يمنع . ونحن إنما نطوّر الغريزة إلى رغبة ، أو نستبدل هذه بتلك ، بذلك العامل الفـكرى الذى تمتع به الإنسان منذ عهده الأول فخدا به إلى التقليد تارة وإلى التجربة مرة أخرى ، حتى انتهى به المطاف فى مراحله الـكثيرة إلى أن أصبح مجموعة رغائب بقدر ما كان مجموعة غرائز

وأخذت الرغبة عن أمها الغريزة ما لهـا من قوة وفتوة ، وأصبحت فى نفس الإنسان مظهر قلق من هذا ، وعامل إقدام أو إحجام من ذاك ، ولـكنها على كل حال تأبى إلا أن تُدرك ما لا يُترك ، وإلا بقيت فى النفس شغلاً شاغلاً أو علة دفينة . فنحن لا يمـكن أن نشعر بالسعادة ولو كانت محدودة فى النوع وفى الزمن ، ما دامت إحدى رغائبنا القوية لا تصل إلى ما تريد الوصول إليه . تلك هى العلة فى شكوى أكثرنا مما يقع لهم فى الحياة ، حتى تكاد تضيق بهم على رغم ما لها من سعة وما فيها من متعة . فتيار هذا الشعور إنمـا يرجع إلى مصدره فى أعماق النفس ولا شأن له مع الخارج

غير أن قضاء هذه الرغبة وحده لا يكفى فى إيجاد الشعور بالسعادة ، وإنما يجب أن يرى هذا القضاء على شكله النافع لمن قامت هى عنده ولغيره من الناس . فالرغبة فى ذاتهـا لا تمثل خيراً ولا شراً ، وإنمـا تضر أو تنفع بالقياس إلى طريق إشباعها من جوع وإرواثها من ظمأ ؛ لذلك أمكن أن نتخذ من الرغبة مهما كان نوعها أو لونها ، عامل نصر فى معركة الحياة

إن فى طيات النفس ضروباً من الغرائز إحداهن غريزة القاتلة ، غير أن هذه الغريزة لم تَعُد تفصح عن نفسها فى أوساط الحضارة وفى أغلب الأحيان ، كما كان يفصح عنها الإنسان الأول فى بيئته المتأخرة وإدراكه المحدود ؛ فبعد أن كان الأوائل من أهل القرون الموغلة فى القدم لا يكتفون فى إشباع هذه الغريزة بغير القتل والتمثيل ، أصبح لنا من وازع الضمير ومن قوة القانون ما يحول دون الإفصاح عن هـذه الغريزة بلغتها الأولى ، فقد تثور فى داخلنا الرغبة فى القضاء على الخصم ، إلا أن ما يقيمه الضمير ، أو رهبة تبعتها العقوبة ، أو هذه وذاك مجتمعين ، يحولان دون تلبية تلك الرغبة الأولية بذلك اللسان القديم ، فنختار طريقاً آخر فى تأمين حاجة النفس إلى إيذاء العدو ، فنتعقب عيوبه ونعلنها للملأ أو نريه أنّا له مهملون

إن من طبيعة الغريزة أنها لا تظهر إلا بما هى فيه وعليه من غير تلوين أو مراوغة . ذلك لأنها خلو من التبصر والتدبر ، فلا تعرف معنى لاختيار الأصلح فى الهدف وطريقة الوصول

إليه . ثم هي لا تقيم وزناً لقوة الظروف وماهية الوقائع ، وإنما تتجه إلى الغاية في ذات الطريقة . لا تتلفت ولا تتكلف . ولكن بظهور حياة التمدن وتقيُّد هذه الحياة بآداب الوسط الجديد وبأحكامه الآمرة أو الزاجرة ، وجد المرء نفسه بحاجة إلى تعديل ما في بعض غرائزه الفطرية وإلى الاستعاضة عن بعضها الآخر بما دعوناه بالرغائب . وكانت هذه التطورات والتغيرات المتلاحقة على الغريزة أثراً لتلك المراحل الطويلة التي قطعها الإنسان في سبيل التقدم ، وصدى لذلك الصوت العميق المنبعث من أعماق الضمير

يتضح من كل ما تقرر أن الخلق ليس إلا مظهراً لرغبة تقيم في العقل ، ما أعلن منه وما أبطن ، فإذا نحن أردنا استبدال خلق بآخر أو إجراء تعديل فيه ، فلا مندوحة لنا عن التعرف بتلك الرغبة التي صدر عنها ذلك الخلق ، ومن ثم إشباعها بصورة جميلة تقضي على كل شذوذ في السلوك . أما إذا نُظر إلى الخُلق وحده ، وأُهملت الرغبة التي تكمن وراءه ، فإن كل مسعى في إصلاحه يذهب سدى

وأفضل ما يضرب به المثال في هذا المجال ، ذلك الباعث الأول والدافع الأصيل في النفس وأعني به (الغريزة الجنسية) فإن إشباعها وإرواءها مما لا مفر منه ولا محيص عنه . فإذا اصطدمت هذه الغريزة بما حال دون الإفصاح عنها ، واضطرها إلى التوارى من مجرى الشعور إلى ما وراءه — أبت وهي في قاع النفس إلا أن تضطرب وتلتهب وترسل في وسطها الظلم تيارات خفية من الأوامر والنواهي ، تظهر على المصاب عند تلبيتها بمظاهر الشذوذ

فنحن نبدو عاجزين عن معالجة العليل إذا فصلنا الشذوذ عن الرغبة الغريزية التي تحيط به وتغذّيه ؛ فالإصلاح يجب ألا يتناول الخلق ذاته ، وإنما يجب أن يتجاوزه إلى ما وراءه من بواعث خفية هي ولية الأمر في كل شذوذ عن الجموع ، وفي كل ظاهرة تمر ، وأخرى قد تصل إلى مرتبة الجنون ، أو تؤدي إلى ارتكاب الجريمة

وقد ظهر أن هذه الغريزة قد تستنفد طاقتها وتستفرغ وسعها في صور شتى هي خلاف اجتماع الذكر بالأنثى ، كالانصراف إلى الرياضة ، والاشتغال بالفنون الجميلة ؛ فإذا نحن عرفنا مصدر الشذوذ في الخلق وأرجعناه إلى ظمأ هذه الغريزة ، كان في مكنتنا تسوية هذا الشذوذ بإزالة ذلك الظمأ . . . تلك هي الطريقة الصحيحة في تقويم ما اعوج وبناء ما انهدم من جوانب أخلاقنا واتجاهاتنا وأهدافنا في الحياة . والأمر أهون مما يُظن متى كشف عن دخيلة النفس ، واستجيبت دعوة تلك الرغبة بما يرفع عنها الضغط ويعلو بها من القاع

مصيلحي الظريفي

صدرت الطبعة الثالثة من

ليالي الملاح التائه

ديوان الشاعر علي محمود طه

طبعة أنيقة فاخرة على ورق ممتاز وغلاف مبتكر بالألوان الطبيعية لأول مرة .

ثمن النسخة ١٥ قرشاً عدا مصاريف البريد

أرواح شاردة

دراسات في الأدب الأوربي وتراجم وصور فنية غربية

طبعة محدودة على ورق بوفان النادر

الكتاب الذي نفدت الطبعتان الأولى والثانية منه في أقل من عام

ثمن النسخة ١٢ قرشاً عدا مصاريف البريد

يطلب من جميع المكتبات العربية ومن مجلة الرسالة